نفثة مصدور

الجهل أبو الشقاء والجهالة أمه

« مونتاين الفرنساوي »

ما خلوت الى نفسي أناجيهـا ، الا وأدعم بالاصابع رأساً أثقله الغمّ ، وألفه الهمّ ،

ولو كان همٌّ واحد لاحتملته ولـكنـهُ همٌّ وثانٍ وثالثُ

وما قبضت على اليراع الا واحنيت على القرطاس ظهرَ من عجمت عودَه الطوائح ، فغادرته بين صبية يتضورون جوعاً ، وبنيات يقضين جوعا

فذا حظي من الدنيا فدعني لا تزد غمّاً

في الغرب قومٌ اذا ضلّ اهلوه شرعوهم ، وان ظلمت حكامهم صرموهم ، ينهضونه اذا قعد ، ويقعـدونه اذا نهض ، لا خيل عندهم ولا سلاح الا اقلام مذلّقة اذا امتطوا صهواتها ومرّوا بها على القراطيس كان لها صرير ردّد صداه المغربان ، وضجّ لدويه المشرقان ، وهي اذا غمزت الدواة ، واصابت منها المداد ، حقنت دماء ، وهدرت دماء ، فهي جامعة الضدين ، وموفقـة النقيضين ، هي الحرب والسلام ، والخوف والامان ، واللين والقسوة ، والحق والقوة ، لا تخاف في الحق لومة لائم ، ولا تلبس الحق بالباطل ، جالت الجولة اثر الجولة ، فرأيناها ـــ في كل عصر ودولة ، تمخض لتلد الحرية والاستقلال ، وهما التوأمان العزيزان

أما الآن فقد اينعت ازهارها ، ونضجت اثمارها ، وغدا ترابها تبراً ،

وماؤها نميراً ، وارضها تدرُّ من طيبات الرزق لبناً وعسلاً

ما هوغو وڤولتير ، وغوركي وتولستوي ، ودانتي وشكسبير ، ونيوتن وواشنطون ، والميكادو وميلتون ، الا من نوادر القرون ، وعجائب البطون ، رأوا بلادهم تتراوح بين الاغماء والموات ، وتتضاءل تحت اغشية الوهم والتقاليد ، فبرزوا الى ميدان التحرير وأثاروا حرباً عقدت الاقلام عجاجها ، وادارت الافهام ثفالها ، وما هي الا لحظة حتى اجرت في مرهفات الصوارم رونقاً انعكس وميضه ، واضاء ما حوله ، فالتقى السيف بالقلم ، والشجاعة بالشمم ، وان هي الا حملة من حملات الاصلاح حتى نكست اعلام الجهل وعاد اعوانه يتسكعون في ديجور الظلمات ، وما دروا انهم « يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت » فكان ما كان من ذلك الانقلاب الكبير الذي اجهز على حياة الاستبداديين ، نقّى الدين والسياسة من غطارفة المستبدين ، وغطارسة المستأثرين ، بعد ان لاقى الغرب الامرّين ، ان هؤلاء العظماء هم عقل بلادهم ، وروحها ، وسيفها

اطلقوها من اسرها ، وفكوا عنها قيودها ، وعضدوها بعد سقوطها واحيوها بعد مواتها ، وسلكوا بها في مهيع النور والهدى

ليس المرء باصغريه فقط ، انما هو باكبريه ايضاً ؛ القلب واللسان ، والهمة والحسام . فالاولان يتعزّزان بالآخرين ، ولا غنى للآخرين عن الاولين . ما أشدّ يا شرق ما يتحدث الغرب بفضل رجاله ، وما اشدّ يا غرب ما يغمط الشرق ايادي ادبائه ، هؤلاء في شرقهم يشقون ، واولئك في غربهم يسعدون !

اي رباه ! قبسة من اضوائك ، ونظرة من سمائك ، تشمل هـذا الشرق فتدرأ عنه سوء الشبهـات ، وتكفيه شرّ النكبات ، وتصدّ عنهُ زلقات فوضى الاقلام ، وزلاّت خفاف الاحلام ، أيُسام سوء العـذاب ويحطه الخسف من أعلى عليين ، وهو مهبط الوحي ، ومهد الانبياء ؟ . . ايكون مسرح الترهات وملعب الخزعبلات ومنه نشأ العلماء وفيـه اول ما تغنى الشعراء ؟ . . اين الرشيد والمنصور ينظران ما صارت اليه بغداد وما انتجتهُ لها مثقلات الليالي. ان الرازي وابا العلاء يتألمان في مراقدهما عند ما يسمعان الرصافي ينوح هتوفاً على نضارة بغداد ويحرق الارَّم على مجدها الطارف ، وسؤددها التالد ، ولا سيما حينما يقول :

ايا سائلاً عنا ببغداد اننا بهائم في بغداد اعوزها النبتُ
علت امة الغرب السماء واشرفت علينا فظلنا ننظر القوم من تحتُ

ما عهدنا القوم والله يبيتون على الطوى ، ويغمضون على الجوى ، وهم أباة الضيم القائلون النار ولا العار ، والحتف ولا الاقامة على الخسف ، والحرَّة تجوع ولا تأكل بثديها

أيخفُّ ابناء الشرق اليوم الى شرب الكأس التي شرب بها عظماء اجدادهم ، فيعيدون اليه سابق اخضلاله في عهد الحضارة الاندلسية ويحيون رسماً لم يعف دارسه من قنطرة الوادي ، ومكتبة الاسكندرية ؟ . .

نحن يا قوم أحوج الى النهضات منا الى التفنن في اساليب التفرُّق والشتات ، فانهضوا نهوض الغرب ، وقفوا في الربوع وقفة خبيرٍ بواقع الحال ، وتعاونوا ولا تفرّقوا ، « فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » . . .

في البلاد العربية نهضة شريفة ستكون مقدمة من مقدمات الاصلاح في الشرق ، وخطوة واسعة في ميدان الارتقاء ، بل هي احدى طوالع الحركة الفكرية . وسوف تلعب دوراً يخلّد لها حسن الذكر على صفحات الانسانية البيضاء . ولكن لم يشترك في هذه النهضة إلاّ افراد قليلون وهناك الكثيرون ذهب الجهل الذميم بعقولهم ، وختم على قلوبهم ، واضلهم عن النهج السوي ، وما هم الا ليعيثوا فساداً « والذين ينقضون عهدَ الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون »

... كأني برحّالة الفرنجة اذا امَّ بلادنا ، ورأى الخمول نافضاً غباره على احيائنا ، يقول متمثلا بحليم مصر وهو ذاهب الى السودان ليشغلَ احدى وظائف الجيش فيه :

تيممتُ ارضاً تدبُّ الجهالة　　فيها دبيبَ الصبا في الروابي
اذا حدَّث القوم فيها اديبٌ　　يخالونه اعجميَّ الخطابِ

اي عاقل لا يسمع هذه المجازفة - وهي الحقيقة — ولا يرثي لحالة قطر يضيق بأهليه ، وينفّر زائريه ؟

* * *

قيل للفيلسوف : ممن تعلّمت الادب ؟ قال من قليل الادب ، وهو قول مأثور سبقنا الى ادراكه الغرب يوم كبا فرسنا في ميدان السعي والعهد ليس ببعيد ، فما احرانا باليقظة اليوم ، بعد عميق رقودنا ، فنمحو اهانة لحقت بنا ، ووصمة وُسمنا بها ، ولا غضاضة علينا اذا اعترفنا بقول

الفيلسوف ، فإن من لم تعظه نفسه كلَّت فيه المواعظ

والنفس لا ترجع عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجرُ

... نساء القرن العشرين في الغرب يتمتعنَ بحقوقٍ لم يخوّلها القرن العشرون لرجال الشرق . قال نابوليون : « اذا اردت ان تعرف رقي كل امة فانظر الى نسائها » فماذا عسى ان يبلغ هذا القلم من وصف حالة النساء في الشرق وقد

حجبناهنَّ عن طلب المعالي فعشنَ بجهلهنَّ مهتَّكات

فيا شرقيون كفانا ما فات ، وحسبنا ما تمضّنا هذه النكبات ، فكأين من اوانس كاتبات ، وغيد شاعرات ، وخودٍ ممرضات ، واديبات مبرّزات ، نشأنَ منكنَّ يا شرقيات !..

* * *

هذا يمٌّ خاضت فيه من قبلُ اقلام وسبحت عقول ، وما انا بالجاني على نفسي بالخوض في خضمّه ، والاحاطة بأطرافه ، والامر ظاهرٌ للعيان غنيٌّ عن البيان ، فانحطاط الشرق لانحطاط بنائه ، وجمود فتاته ، وعلى تهذيبها يتوقف ارتقاؤه ، فهي داؤه ودواؤه

وتلك نفثة مصدور لو لم يضق الخناق ، وتبلغ الروح التراق لكسرت القلم قبل ان ابوحَ بها ، والسلام

بيت جالا اسكندر الخوري

العمال في الهيئة الاجتماعية

كتبنا في صدر الجزء التاسع الماضي مقالةً عن العمال والحكومات بمناسبة الاعتصابات التي توالت في أوربا وسرَت عدواها الى مصر ، وقد القى السر ادوارد غراي ناظر خارجية انكلترا خطاباً في تأبين أحد أصحاب المصانع الكبرى بحث فيه عن مركز العمال في الهيئة الاجتماعية نقتطف منه ما يلي اتماماً للفائدة :

« ان الاستياء البادية دلائله بين طبقات العمال ، والذي يظهر حيناً بمظاهر الاعتصاب ، وحيناً بالتذمر من النقابات وزعمائها ، لا يرجع كما يتوهم البعض الى تحرّج مركز العمال ، او سوء مصيرهم ، فان حالتهم وان كانت لا تزال موضوعاً للتحسين ، فانها ارقى بكثير مما كانت عليه منذ خمسين سنة . وعليه فان سبب هذا الاستياء الشرود في عالم الاحلام والامال والمطامع التي لم يكن يحلم بها عمال الزمان الماضي

فانه كان من المحتم ان ينتج عن مبدأ المساواة السياسية التي سلمنا بها ، مبدأ المساواة الاقتصادية . زادت رواتب العمال وتحسنت طرق تشغيلهم ولكنهم باتوا يتساءلون اذا كانت تلك الزيادة وهذا التحسن بنسبة نقص نفقات الصناعة الحديثة . ثم ان الطبقة العاملة باتت في قلقٍ دائم من حيث استمرار العمل ، لان وقوف الاشغال مدةً من السنة أصبح قاعدة مطّردة في كل البلدان

وقد ولَّد نشر التعليم بين الشعب عاطفة نفور في صدور فتيان العمال من حياة العامل وما فيها من شظف العيش والعناء الجزيل والنصب الدائم وهذه الامور تدلك على اسباب التذمر والاستياء بين العمال بالرغم عن

تحسن مركزهم في الهيئة الاجتماعية . وان جماعة هذه عواطفهم واستعداداتهم يكونون في كل حين على أهبة التمرد ، بسبب او بلا سبب ، تارة على رؤسائهم اصحاب العمل ، وتارة على زعمائهم انفسهم

وعليه فيجب ان نحذر من إضعاف النقابات . واذا تركنا الفوضى تتسربُ اليها ، فاننا نكون رفعنا راية اليأس وسرنا وراءها ، لان كل جماعة لا قائد لها لا يسعها الا التخريب والتدمير

فنحن نريد ان نرى نقابات العمال أقوى مما هي ، لا ان نراها ضعيفة مضطربة كما يرغب البعض في ذلك . لان قوتها اصبحت اليوم اكثر لزوماً من كل حين . وهي التي تجعل موازنة في المجتمع الانساني ، اذ تقف امام قوة رأس المال التي باتت اكثر مقدرة واقل شفقة من الماضي

وقد اتسعت الهوة الفاصلة بين مساهم الشركة الذي ينتظر بفروغ صبر توزيع حصص الارباح ، وبين العامل الذي يشتغل في هذه الشركة ، فان الاثنين يعيشان متباعدين وليس ما يقرّبهما . وهذا التباعد مضرّ بالطرفين . فيجب ان تعودَ العواطفُ الانسانية صلةً بين كليهما . فلا الدستور السياسي يحرّر الشعب ، ولا الامتيازات تساعده ، ولا الاملاك تغنيه ، اذا لم ترسخ في قلبه اخلاق الرجولة والثبات والاستقامة

فلنسعَ اذن كلنا اغنياؤنا وفقراؤنا ، افرادنا وجماعاتنا لننشيء هيئة صناعية كبرى يمكننا ان نطالبها كلنا بحقوقنا ولكن نقوم ايضاً كلنا بواجباتنا نحوها . فتكون جمعية لا يعد العامل فيها حيواناً مأجوراً حتى ولا يداً عاملة بل عقلاً مفكراً وقلباً شاعراً »

ادوار غراى